السنين ولم يتنبه الى تدوين معارفهِ الاَّ منذ ثلاثة آلاف سنة وهذه المدة لا تحسب شيئًا في تاريخ الارض وما عليها من الموجودات . فالجرادة التي تدوسها برجلك وُجدت على الارض قبل ان وجد عليها نوع الانسان بالوف الوف من السنين والزوفا النابت في الحائط كان في الارض قبل الانسان بما لا يحصى من القرون هذا ناهيك عن حداثة المعارف فالقوة البخارية موجودة في الارض من حين انفصالها عن الشمس ومع ذلك لم يتنبه الانسان اليها الاَّ منذ اثني سنة ولم ينتفع بها الاَّ منذ مئة سنة . والقوة الكهربائية كانت في الارض وهي جزء من سديم الشمس ولكنَّ الانسان لم يستفد منها الاَّ منذ اربعين او خمسين سنة . فما ادرانا ان العقل يقف عند هذا الحد او ان الانسان ينقرض قبل ان تمرَّ عليهِ الوف من السنين . واذا اتيح للانسان ان يعمِّر في الارض عشرة قرون اخرى فقط و بقيت معارفهُ تتقدم على النسبة التي تقدَّمت فيها في القرن الاخير فمن يعلم الحد الذي تبلغ اليهِ

هذا واننا نكرر ما ذكرناهُ سابقًا مرارًا عديدة وهو ان ادلة الخلود الدينية كثيرة في جميع الاديان والمذاهب وهي تحتم بان الخلود امر لا ريب فيهِ . وقد رسخ في الاذهان ان العلوم الطبيعية تنفي الخلود او لا تتعرَّض لهُ بنفي ولا اثبات فاثبتنا في مقالتين سابقتين وفي هذه المقالة انهُ قد يمكن الاستدلال على الخلود بالعلوم الطبيعية نفسها وهذا من جملة منافعها العميمة

التمدن والانتحار

بقلم جناب شكري افندي اسبيرو

كثر الانتحار في هذا العصر في البلاد المتمدنة كثرةً اقلقت الافكار وازعجت الخواطر حتَّى لا يمضي يوم الاَّ ويُسمع فيهِ باخبار الذين انتحروا اما شنقًا او رميًا بالرصاص او غرقًا او بسمًّا فبحث كثيرون عن اسبابهِ وعن ابواب التخلُّص من شرهِ فجمعوا الاحصاءات ونظروا فيها ملِيًّا وكتبوا المقالات وألَّفوا الكتب حتَّى صار امر الانتحار من المواضيع المهمَّة في هذه الايام فجمعت هذه المقالة معتمدًا فيها على اقوال احد الكتبة المشهورين وهو الدكتور وليم مانيوس فاقول

ذكرت احدى جرائد بوستن اليومية لقد وجد بالاحصاء منذ تسع سنين انهُ ينتحر من الاوربيين في السنة واحد من خمسة آلاف وبما ان عدد اهالي اوربا الآن ثلثمئة مليون فيبلغ عدد المنتحرين منهم في السنة ستين الفًا وهذا يفوق عدد القتلى والجرحى في أهوَل المعارك

الحديثة . وهو اقل من العدد الحقيقي لان كثيرًا من المنتحرين يخفي اهلهم سبب موتهم اتقةً ولا خفاء ان عدد القتلى انتحارًا اقل من عدد الذين يحاولون الانتحار فيقدّر لهم المولى من يخلصهم من هذا الموت الشنيع . وقد قدّروا ان سبعمائة شخص حاولوا الانتحار في مدينة لندن عام ١٨٨١ فقبض البوليس على اكثر من نصفهم

ومن الغريب ان الانتحار زاد في كل الممالك المتمدنة فقد حسبوا عدد المنتحرين في اوربا من عام ١٨١٦ الى ١٨٧٧ فوجدوا انهُ زاد زيادة فاحشة نسبتها تفوق نسبة ازدياد عدد السكان والذين يموتون حتف انفهم . وكان يظن ان الولايات المتحدة الاميركيّة التي تكثر فيها الموّن وابواب الرزق واسعة فيها واسباب التجارة متوفرة تكون وطأة هذا الداء فيها اخف منها في غيرها من البلاد ولكن الامر على خلاف ذلك لان هواء اميركا اسرع تغيّرًا من هواء اوربا والمجموع العصبي في الاميركيين اشد انفعالاً وطرق المعيشة عندهم اقل صحة وزد على ذلك ان تجارهم اشد اقدامًا وصروف الدهر والايام عليهم اشدُّ نقلبًا فقد يرتقون من حضيض الفقر الى اوج الغنى وقد يهبطون من اوج الغنى الى حضيض الفقر في ايام قلائل

وقد طال متوسط عمر الانسان في اوربا واميركا بتقدم علمي الطب والجراحة ولكن حب التخلص من هموم الحياة وتعابها زاد من يوم الى آخر لا في الفقراء والمحتاجين بل في الاغنياء والعظماء وذوي المراتب والمناصب فحاولوا التخلص منها بقتل نفوسهم وذلك امر شائع من قديم الزمان وعليهِ جرى ارسطاطاليس وكليانثس وديمقريطس وبروتس ونيرون ومتريداتس وهنيبال وكليست وبول وروميولي وهيدن وغيرهم كثير حتّى لم يبقَ ريب في ان الغنى والعلم ووفرة الخيرات والملاذ لا تمنع اصحابها عن ارتكاب هذا المنكر . فاللورد كليف مؤسس السلطنة الانكليزيّة في بلاد الهند حاول الانتحار دفعتين في صباهُ فلم يتأتَّ لهُ ذلك . ولما بلغ التاسعة والاربعين وكان قد نال صيتًا واسعًا ومالاً طائلاً ورقي الى رتبة لورد تملكتهُ السوداء من جرى المرض وتهم الاعداء فصوّب غدارتهُ نحو رأسهِ واطلقها فخر قتيلاً . وقيل ان نابوليون الاول عزم على الانتحار عام ١٧٩٤ تخلصًا من ضيقتهِ المالية فانقذهُ احد اصدقائهِ . والبرنس بسمرك قال انهُ ينتحر اذا لم يفز الالمان في واقعة سادوا . واللورد بيرون الشاعر الانكليزي الشهير قال انهُ كثيرًا ما نوى الانتحار فلم يمنعهُ عنهُ سوى شماتة حميدهِ بهِ

ولا خفاء ان حب الحياة اقوى الغرائز ومع ذلك فكثيرًا ما ينتحر الانسان لاسباب طفيفة لا طائل تحتها . قيل ان واحدًا انتحر لانهُ سئم من تزوير ملابسهِ وفك ازرارها .

وان طباخ كنديه الفرنساوي طعن نفسه بسيفه لان مولاه دعا الملك لويس الرابع عشر للطعام وطلب الطباخ سمكًا ليهيئه له فلم يؤتَ له به . وان امرأة القت بنفسها وولدها في الماء فمات الاثنان غرقًا لان البوليس امرها ان تأتي به الى المستشفى ليطعم . وان فلاحًا اميركيًا شنق نفسه لان اصحابه عتبوا عليه على عدم استخدامه ممرضةً لزوجته وهي مريضة وان امرأة القت بنفسها في نهر الدانيوب لان الناس هزأوا بها لضخامة جسمها

ولا يقتصر الانتحار على البالغين بل قد يتناول الاحداث ايضًا فان اكثر من الفي ولد ينتحرون سنويًا في اوربا وعددهم يزداد من عام الى آخر

وقد اختلفت العلماء في الاسباب التي تحمل الناس على الانتحار وقال بعضهم انها جنون وقتي . ولا شبهة في ان كثيرين من المنتحرين يوقعون بانفسهم وهم غير عالمين ما يصنعون لكن من المؤكد ان اكثر المنتحرين يعلمون كنه العمل الذي يقدمون عليه ويجرونه قصد التخلص من العار او العقاب . لان مرارة الحياة وشدة الغم تبثان في ينابيع السرور سمًّا ناقعًا وتدعوان البعض الى تمني الموت والالتجاء اليه تخلصًا من الهموم والغموم على حد قول الشاعر

والموت خير من حياة مرة تقضي لياليها كقضم الجلمد

بل قد ثبت انهُ ما من عمل من اعمال الانسان يظهر فيه التعمُّد والتروي اكثر من الانتحار وحسبنا دليلاً ما ذكرهُ التاريخ عن الذين انتحروا فمنهم هانيبال الذي سمَّ نفسه بسم اخفاهُ منذ زمن ليلجأ اليه اذا وقع في قبضة عدوٍّ اذلَّه وقسطنطيس الذي فضَّل الانتحار على ان يقود عساكر الفرس الى بلاده وهذا شأن كثير من المنتحرين

اما الاسباب الحقيقيَّة التي تدعو الى الانتحار فغامضة جدًّا وتختلف باختلاف العوارض ومنها الميل الوراثي للانتحار . فقد عرف فولتير الكاتب الفرنساوي ان رجلاً انتحر ثم انتحر ولداهُ حينما بلغا السن الذي انتحر فيه ابوهما بدون ان يعلم لانتحارهم سبب . وذكر باروز عائلة ظهر فيها هذا الميل في ثلاثة اعقاب فالجد شنق نفسه ثم انتحر ثلاثة من اولاده واثنان من اولادهم وان سبعة اخوة في سكسونيا وسبعة في التيرول انتحروا الواحد بعد الآخر

ومن هذه الاسباب ادمان شرب المسكرات في شمالي اوربا ودواعي العشق والغيرة والفقر في جنوبيها والعار والخوف من العقاب في اواسطها . وربع المنتحرين في بروسيا تنسب اسباب انتحارهم الى الجنون الناشئ معظمهُ عن السكر وزيادة عدد المنتحرين في فرنسا في العشرين سنة الماضية ناشئة عن ضعف الارادة وعن اليأس الصادرين عن السكر

ومن اسبابه الحب وحقهُ ان يكون من اقوى دعائم الالفة والارتباط فاصبح من بواعث

الوحشة والانفصال. فانطونيوس انتحر لما علم ان كليوبترا خانته وكليوبترا انتحرت لما اشتد بها الحزن عليه. وكثيرًا ما تنتحر الفتاة اذا ابى اهلها تزويجها بشاب تحبه فينتحر هو افتداء بها وكثيرًا ما يرتاب الزوج بزوجته فيقتلها ويقتل نفسه غيرة

والفقر والضيق من اكبر اسباب الانتحار فقد ذكر نابرت انه من ٦٧٨٣ حادثة ٩٠٥ سببها الفقر و٢٢٣ سببها الضيق. ومنذ سنة ١٧٧٠ الى سنة ١٨٣٠ انتحر ٧١٩٠ شخصًا في مدينة لندن وكان الفقر سبب انتحار ١٤١٦ منهم والضيق سبب انتحار ٦٠٥ منهم. والضيق المالي القى ٣٠٥ فرنسويين عام ١٨٨٤ في مهاوي الهلاك. وازداد الانتحار في الولايات المتحدة الاميركانية عام ١٧٥٨ اي بعد العام الذي حصل فيه الضيق المالي الشديد

والامراض الحادة والمزمنة التي تنغص الحياة تدعو احيانًا كثيرة الى الانتحار وكذلك الانشقاقات العائلية فانها دفعت ٢١٩ بروسيًا سنة ١٨٨٠ الى الانتحار وانتحر ٦٧٥ شخصًا في فرنسا سنة ١٨٨٤ بسبب الانشقاقات العائلية و١٣٢٨ بسبب الآلام والامراض. و٢٨٨ شخصًا في بروسيا سنة ١٨٨٠ لان بهم امراضًا مزمنة غير قابلة للشفاء وقد انتحر البعض بسبب تهكم غيرهم عليهم من ذلك ان رجلاً وعد شاعرًا ان يزوجه ابنته ثم عدل عن ذلك وزوجها برجل آخر فنظم الشاعر قصيدة يهجو بها ابا الفتاة فانتحر هو وابنته. وذكر اسكيرل ان طبيبًا الف كتابًا طبيًا فلسفيًا موضوعه المالنخوليا فانتقد الكتاب انتقادًا شديدًا أدّى بمؤلفه الى الانتحار

والنوائب لا تدفع الفقراء فقط الى القاء انفسهم في الهلاكة بل الاغنياء ايضًا العائشين في الملاذ والرخاء. والغنى والترف والراحة التي يسعى اليها كثيرون تدفع البعض الى كره الحياة والتخلص منها وشأنهم في ذلك شأن الاسكندر المكدوني الذي بكى لانه لم تبقَ في العالم ممالك اخرى يتغلب عليها ويضمها الى مالكه الواسعة

ويقال ان ارسطاطاليس الفيلسوف اليوناني انتحر قضى انتحارًا مع ما كان عليه من سمو الادراك وحدة الذهن والمعارف الفلسفية. وقد ذكر الدكتور هاري مرصلي احد مشاهير الكتبة في هذا الموضوع ان كره الحياة وعدم الصبر عليها من امراض الدماغ الحقيقية

ومن بواعث الانتحار حب الاشتهار وهو يزداد كل يوم على غرابته فقد ثبت ان البعض ينتحرون لكي تشتهر اسماؤهم لا غير

ومن اسبابه ايضًا التطرف في اهمال المبادئ الدينية وطرح الاعتقاد بالخالق عزّ وجلّ وبالحياة الاخرى. ومن كان دليله رجلٌ مثل الفيلسوف هيوم الذي قال "ان حياة الانسان

ليست بأثمن من حياة الحازونة". لا يعتبر انه يخاطر بحياته لاقل سبب

وقد اقتصرنا فيما مضى على ذكر الاسباب الشخصيَّة التي تسهل الانسان على الانتحار ولكن لا بد من اسباب اخرى اقليميَّة واجتماعيَّة وبيولوجيَّة تؤثر في الانسان على غير علم منهُ وتحوله على النتك بنفسهِ. نعم انهُ ليس لدينا ما نستدل منهُ على العلاقات التي بين الاقوال الاديميَّة والحوادث الخارجيَّة لكن البراهين عديدة على علاقة الانتحار بالاقليم وبمؤثرات طبيعيَّة أُخرى. فقد ذكر منتسكيو الفرنسوي ان الانتحار في البلاد الانكليزيَّة اكثر منهُ في البلاد الاخرى وذلك نظرًا لاقليمها الكثير الضباب والرطوبة وهو قول يُعترض عليهِ من وجهين اولها ان انكلترا ليست باكثر الممالك انتحارًا وثانيهما ان الفصل الذي يكثر فيهِ الضباب هو الفصل الذي يقلُّ فيهِ الانتحار. وقد ثبت من تعداد المنتحرين ان البلاد التي تكثر فيها هذه الحالة واقعة في اواسط اوربا من الشمال الشرقي من فرنسا الى حدود جرمانيا الشرقيَّة وكلما تقدمنا شمالاً او جنوبًا نقص الميل الى الانتحار تدريجًا فاقلهُ في اسبانيا والبرتغال واكثرهُ في سكسونيا

ولارتفاع البلاد وانخفاضها علاقة بالانتحار ايضًا فالاماكن الجبليَّة من انكلترا وفرنسا وجرمانيا واستريا والمجر والبلجيك وايطاليا تخف فيها وطأة الانتحار ومن الغريب انهُ يكثر في الاماكن التي فيها انهر كبيرة في اوربا ويقل في الاماكن الكثيرة المستنقعات

ويتضح ايضًا من النظر في تعداد المنتحرين في البلاد المتمدنة ان لكثرتهم وقلتهم علاقة بفصول السنة فيكثر عددهم عند الانتقال من الربيع الى الصيف ويبلغ اعظمهُ في شهر يونيو واقلهُ في ديسمبر. وقد نُشر في مدينة بوستن باميركا تعداد المنتحرين في تسعة عشر عامًا نهايتها عام ١٨٧٨ فاتضح منهُ صحة ما ذكر وكان معظم الانتحار في شهر يونيو واقلهُ في فبراير ثم في ديسمبر ويناير. ويطلق هذا الحكم على المصابين بالجنون ايضًا فان تأثير حر اواسط الصيف فيهم اقل من تأثير حر اوائلهِ قبل ان تعتاد اجسامهم الحرارة ولايام الاسبوع والشهر وساعات النهار علاقة بعدد المنتحرين فيكثر في العشرة الايام الاولى من الشهر وفي يوم الاثنين والثلاثاء والخميس بسبب التبذير والاسراف في الايام التي تلي يوم قبض الاجور

ويختلف الميل الى الانتحار باختلاف الشعوب فالشعب الجرماني اميلهم اليهِ والسلافي اقلهم ميلاً وبقيَّة الشعوب بين بين بحيث ان اقربها الى الجرماني اميلها اليهِ وابعدها عنهُ اقلها ميلاً ففي فرنسا يقل عدد المنتحرين حيث العنصر الجرماني ضعيف كمقاطعة اوفرني

وبريتاني وجاسكوني وغيرها وكذلك في ايطاليا فاقلة في كالابريا وسردينيا واكثرة في شمالي ايطاليا التي استوطنتها الشعوب الجرمانية في الاعصر المتوسطة

ومن اشهر المؤثرات الاجتماعية التي تدعو الى الانتحار التقليد فصحف التاريخ ملآنة باخبار الانتحار الوبائي الذي تسلط على الناس في اوقات مختلفة وقد ظهر هذا الميل في الازمنة القديمة بين نساء ميليتس وظهر بعد ذلك بقرون بين نساء مرسيليا ولبون من اعمال فرنسا وظهر في روين عام ١٨٠٦ وفي سنت جادنت عام ١٨١١ وفي فالوا عام ١٨١٣ وفي انكلترا عام ١٨٢٣ وسرى بسرعة غريبة فكان اذا ألقى احدهم بنفسه من اعلى برج مثلاً اقتفى مثاله كثيرون . وعام ١٨٨٣ رمى كثيرون من الفرنساويين بانفسهم من اعلى عمود فاندوم فتجمهر على الناس الصعود الى قمته

هذا وما لا مرية فيه ان اهالي اوربا واميركا اكثر الناس انتحاراً وهو على اكثر بين اكثرهم علماً وتهذيباً . فالجرمانيون أرقى أمم العالم علماً وتهذيباً وهم اكثر الامم اقداماً على الانتحار ويتلوهم الفرنسويون ثم الانكليز ثم الايطاليون ثم المجر واما اسبانيا وهي اشد الممالك الاوربية تأخراً وايرلاندا والبرتوغال وكرسيكا فهي اقلها انتحاراً . ثم ان اقسام البلاد الواحدة تختلف بعضها عن بعض من هذا القبيل فاهالي شمالي فرنسا اكثر تهذباً وتعلماً وهم اميل الى الانتحار وكذلك اهالي شمالي ايطاليا واواسطها . وسكسونيا التي تفوق البلاد الجرمانية في مدارسها تفوقها في عدد المنتحرين

ومن نتائج التمدن التي لا مفرّ منها اغراء النفوس بطلب الراحة والرفاهة التي يعزّ على العامة نيلها وكلما تحسنت الهيئة الاجتماعية نشأت فيها احتياجات جديدة فما يكون اليوم من الكماليات يصبح غداً من الضروريات . ولا بدّ من ان يلاقي الانسان مشاق كثيرة وهو يسعى للحصول على ذلك فاذا كان ضعيف البنية والعقل والاخلاق أسقط في يده وربما هلك في جهاده . ومن علم ان كل مظاهر الحياة الاجتماعية وجميع اوجه التمدن تنشأ عن جهاد الانسان ضد الطبيعة والناس عموماً ونفسه خصوصاً تبينت له اسباب الانتحار فوجده شراً لا مفرّ منه في خلال التمدن

والسرعة والمزاحمة في الاشغال من ضروريات التمدن الحالي وطلب الغنى والوظائف والشرف وهذه كلها مما ينهك الدماغ واي انهاك ألا ترى ان آلة الاكسبريس تبلى بسرعة اكثر من آلة القطارات البطيئة ومثلها المجموع العصبي فانه خاضع معها لهذا الناموس وهو ان مدة الحركة تمكفوء السرعة

وتسابق المتمدنين الى خيرات الدنيا قد صار الآن جهاداً يقتضي حدة الذهن وسرعة الخاطر والاختراع والمهارة وبما ان الدماغ هو السلاح الذي تحارب به فلا بد من اختلاله اذا كانت القوات المضادة اقوى منه . والطبيعة تقي القوي والماكر المحتال ولكنها تتخلى عن الضعيف الفاتر الهمة فيهلك اثناء الجهاد . والاقوياء ذوو البنية السليمة والاعصاب القوية يخرجون من حومة الجهاد وقد ضعفت قواهم وخارت عزائمهم فيستولي عليهم المرض والقلق وتنغص حياتهم ويلتجئون الى الانتحار ويقضي عليهم وهم في مقتبل العمر وعنفوان الشباب ولذلك مات اكثر النوابغ شباناً وكهولاً

ووسائط النقل كالسكك الحديدية والدواخر البحرية والتلغراف والتلفون تيسّر لنا استعمال كل لحظة من حياتنا وتربطنا بالمسكونة كلها حتى ان الحوادث التي تحدث على الف ميل منا تزعجنا وتقلقنا كأنها حدثت أمام منازلنا وصار كل مشتغل في العالم كجزء منه فاذا حدث فيه ما يسبب الهيجان هاج أو الفرح فرح او الغم اغتم وهذا اصل ما نراه من الضغط والتضييق والقلق في هذه الايام

والمتمدنون الآن يفتخرون بانهم ارفع شأناً من اجدادهم الا ان متاعبهم اشد واعظم لاسباب عديدة فاجدادهم اضعفوا عضلاتهم فقط واما هم فيضنون اعصابهم ويفقدون العزم والرجاء ويُحرَمون اللذة بملاذ الحياة البسيطة فيؤديهم الحال الى التعب والضجر من الحياة ثم الى الانتحار . وزد على ذلك ان العقل يضعف بالتعلم الاجباري فان الاوربيين يعلمون اولادهم وهم اطفال ويثابرون على افراغ المعارف في عقولهم ويحملونهم المسئولية وهم حديثو السن فيأتون من اتعاب الحياة ومشاقها في سن كان فيه اجدادهم يقضون اوقاتهم في الملاعب والملاهي . واذا اراد الشاب الآن ان يسعى وراء الشهرة والمجد انفق في ساعة واحدة زيت سراج حياته فتظهر عليه علامات الضعف والعجز قبل ان يصل الى نصف العمر المقدور للانسان . فلا عجب اذا صارت الحياة حملاً ثقيلاً وحاول البعض التخلص منها للتخلص من مشاقها . وعسى ان لا يشيع عندنا شيء من اسباب الانتحار التي شاعت في اوربا بل ننتبه الى الداء قبل تفشيه بيننا ونتحذر منه

بلغ الشاي الداخل بلاد الانكليز سنة ١٨١٠ ستة عشر مليون رطل (ليبرة) وسنة ١٨٣٠ ثلاثين مليون رطل وسنة ١٨٦٠ ثمانية وسبعين مليون رطل وسنة ١٨٨٠ مئة وسبعة وستين مليون رطل وفي العام الماضي نحو مئتين وعشرين مليون رطل